وقـد وصفه المؤرخون بأنه كان كثير الفضائل، حسن المحاضرة، غزير الأدب، يقول الشعر الجيد، ويكتب الخط الحسن السريع، حافظاً للقرآن، سليم الصـدر، محبّاً لأهل العلم، يشتغل عليهم كثيراً، شديد التصميم في الأمور التي تصل إليه مما يتعلق بتصرفه.

خطب بالجـامـع الجـديد (ابن طولـون) بمصر، وتولّى الوكالة الخاصة والعامة، والنظر على أوقاف كثيرة، ثم تولّى القضاء بالديار المصرية في سنة ٧٣٨ هـ، فسار فيه سيرة حسنة طيلة المدة التي تولاّه فيها، وفي أواخر أيامه ألقىٰ الله تعالى في نفسه كراهة المنصب، فاستعفىٰ في سنة ست وستين، فلما ذهب إلى منـزلـه ثقّلوا عليه بأنـواع التثقيلات، وألحوا عليه في الرجوع فلم يجبهم، واتفق له ما لم يتفق لقاضٍ قبله من العظمة ونزول الأمير الكبير يلبغا بنفسه، وهو ملك البسيطة إلى داره، ودخل عليه ورجاه أن يعود فأبىٰ.

ثم حجّ في تلك السنة، ثم زار في أثناء سنة سبع قبر النبيّ ﷺ وبقي يحث السير في العودة إلى مكة لاحتمال موته في غير الحرمين، فلما حجَّ وزار ووضع عن كاهله الأوزار، وعاد إلى مكة أقام بها ثلاثة أيام معافىٰ، ثم مرض فاستعر به المـرض عشـرة أيام، فتـوفي في عاشـر جمـادىٰ الآخرة سنة سبع وستين وسبعمائة، ودفن إلى جوار الفضيل بن عياض بباب المعلاة.

وكان يقول: أتمنىٰ أن أموت في أحد الحرمين معزولاً عن القضاء. فنال أمنيته في الأمرين.

مؤلفاتـــه:

من أبرز مؤلفات ابن جماعة:

١ ـ شرح القواعد الصغرى. فقه شافعي.